الباب الأول

المحور المفاهيمي

obeikan.com

obeikan.com

في هذا المحور نتعرض لأهم المفاهيم التي ينبغي النظر إليها بشكل يختلف عن السائد في فقه الجمهور. ففيما يتعلق بالنظر للإنسان ومكانه في الكون سادت نظرة تلغي عطاء الإنسان نهائيا وتجعل معارفه محدودة بالوحي. وإزاء المعارف تدعو لأسلمة المعرفة بمفهوم يقيد البحث العلمي، كما سادت أفكار تلغي أية قيمة للأديان والأخلاق خارج مظلة الدين الإسلامي، ومفاهيم للتأصيل باعتباره حربا على العصر في مقابل مفاهيم أخرى ترى التحديث باعتباره انفصاما عن التراث وعن الأصل. ونظرة تحريمية للفنون، وتقييدية للعلوم الطبيعية، وغير مهتمة بالبيئة الطبيعية.. في هذا المحور نتطرق لتلك المفاهيم داعين لنظرة متجددة لها على ضوء الاجتهاد وآلياته المذكورة في المقدمة.

١- العطاء الإنساني بين اللاهوت والناسوت:

أهم نظريتين حول مكانة الإنسان في الكون هما: النظرية اللاهوتية التي تعتبر الإنسان متلقيا للحقيقة من الغيب عبر الوحي، فمعارفه هي ما نزل به الوحي. النظرية المناقضة لها تماما هي النظرية الناسوتية التي تعتبر الإنسان مستقلا بذاته ومعارفه هي ما تطولها قدراته العقلية والتجريبية.

النظرة الإسلامية تؤكد أن في الكون غيبا لا يدركه الإنسان بذاته. قال تعالى: ﴿مَّآ أَشْهَدتُّهُمْ خَلْقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَلَا خَلْقَ أَنفُسِهِمْ وَمَا كُنتُ مُتَّخِذَ ٱلْمُضِلِّينَ عَضُدًا ﴿٥١﴾﴾[1] هذا هو مجال الوحي الذي يدركه الإنسان عن طريق التنزيل: ﴿وَبِٱلْحَقِّ أَنزَلْنَٰهُ وَبِٱلْحَقِّ نَزَلَ﴾[2]

هناك مجال ناسوتي مشروع لمدارك الإنسان وهو متعلق بالكتاب المشاهد أي

(1) سورة الكهف الآية ٥١.

(2) سورة الإسراء الآية ١٠٥.

الطبيعة التي خلقها الله بالحق وجعل سننها ونواميسها متاحة لمعارف الإنسان العقلية والتجريبية. قال تعالى عن هذا الكتاب المشاهد: ﴿وَمَا خَلَقْنَا ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَآ إِلَّا بِٱلْحَقِّ﴾[1]. وقال عن سنن الطبيعة: ﴿قَالَ رَبُّنَا ٱلَّذِىٓ أَعْطَىٰ كُلَّ شَىْءٍ خَلْقَهُۥ ثُمَّ هَدَىٰ ۝٥٠﴾[2]، وقال عن الجهد المطلوب لمعرفة حقائق الطبيعة: ﴿سَنُرِيهِمْ ءَايَٰتِنَا فِى ٱلْءَافَاقِ وَفِىٓ أَنفُسِهِمْ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ ٱلْحَقُّ﴾[3]. روى ابن خرامة أن النبي ﷺ سئل: **أرأيت أدوية نتداوى بها، ورقي نسترقيها، وتقى نتقيها، هل ترد من قدر الله شيئا؟ قال: «هي من قدر الله»**.

٢- مصادر المعرفة:

إن للإنسان أربع مصادر للمعرفة تتكامل ولا تتناقض:

فالوحي هو مصدر معرفة الغيب.

والإلهام هو مصدر المعارف غير الحسية: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَءَامِنُوا۟ بِرَسُولِهِۦ يُؤْتِكُمْ كِفْلَيْنِ مِن رَّحْمَتِهِۦ وَيَجْعَل لَّكُمْ نُورًا تَمْشُونَ بِهِۦ﴾[4].

والعقل مصدر معرفة لما يطوله العقل. ﴿إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ﴾[5].

والتجربة مصدر معرفة لما تدركه الحواس قال تعالى: ﴿وَفِى ٱلْأَرْضِ ءَايَٰتٌ لِّلْمُوقِنِينَ ۝٢٠ وَفِىٓ أَنفُسِكُمْ ۚ أَفَلَا تُبْصِرُونَ ۝٢١﴾[6].

---

(1)سورة الأحقاف الآية ٣.

(2)سورة طه الآية ٥٠

(3)سورة فصلت الآية ٥٣.

(4)سورة الحديد الآية ٢٨.

(5)سورة الروم الآية ٢٤ – سورة النحل الآية ١٢ – سورة الرعد الآية ٤.

(6)سورة الذاريات الآيتان ٢٠-٢١.

٣- أسلمة المعرفة

فكرة أسلمة المعرفة يجب أن تعني طرد افتراض العلوم الطبيعية للمادية، لأن هذا الافتراض جزء من النزاع بين الكنيسة والعلم ولا أساس له، لأن العلوم الطبيعية لا شأن لها بهذا الأمر. كذلك كتابة تاريخ العلم الحقيقي وليس الأيديولوجي الغربي وهو ما يؤكد عالمية المعرفة العلمية ودور الحضارة الإسلامية وغيرها من الحضارات في ذلك.

طغيان المادية على عهد التنوير الغربي جعل العلوم تفترض صحة الطبيعة المادية للكون والحياة. وغلبة الحضارة الغربية جعلتها تفترض أن إنجازات الإنسان المعرفية من عطاء الحضارة الغربية. هذان الافتراضان خاطئان والتخلص منهما هو المفهوم الصحيح لأسلمة المعرفة. أما محاولة تقييد البحث العلمي بأية قيود في عالم الشهادة فلا يجوز.

٤- الإسلام والأديان

إن القرآن يطلق على أهل الكتاب صفة الإسلام ﴿ ۞ وَلَا تُجَٰدِلُوٓاْ أَهۡلَ ٱلۡكِتَٰبِ إِلَّا بِٱلَّتِي هِيَ أَحۡسَنُ إِلَّا ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ مِنۡهُمۡۖ وَقُولُوٓاْ ءَامَنَّا بِٱلَّذِيٓ أُنزِلَ إِلَيۡنَا وَأُنزِلَ إِلَيۡكُمۡ وَإِلَٰهُنَا وَإِلَٰهُكُمۡ وَٰحِدٞ وَنَحۡنُ لَهُۥ مُسۡلِمُونَ ٤٦ ﴾[1] ويعترف للأديان الكتابية بقيمة روحية ﴿ لَيۡسُواْ سَوَآءٗۗ مِّنۡ أَهۡلِ ٱلۡكِتَٰبِ أُمَّةٞ قَآئِمَةٞ يَتۡلُونَ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ ءَانَآءَ ٱلَّيۡلِ وَهُمۡ يَسۡجُدُونَ ١١٣ يُؤۡمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلۡيَوۡمِ ٱلۡأٓخِرِ وَيَأۡمُرُونَ بِٱلۡمَعۡرُوفِ وَيَنۡهَوۡنَ عَنِ ٱلۡمُنكَرِ وَيُسَٰرِعُونَ فِي ٱلۡخَيۡرَٰتِۖ وَأُوْلَٰٓئِكَ مِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ١١٤ وَمَا يَفۡعَلُواْ مِنۡ خَيۡرٖ فَلَن يُكۡفَرُوهُۗ وَٱللَّهُ عَلِيمُۢ بِٱلۡمُتَّقِينَ ١١٥ ﴾[2] ويعترف بأن في التجربة الإنسانية وسائل لمعرفة الحق بوساطة

(1) سورة العنكبوت الآية ٤٦.

(2) سورة آل عمران الآيات ١١٣ - ١١٥.

الفطرة الإنسانية ﴿أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ قَالُوا بَلَىٰ شَهِدْنَا﴾[1]! وقال تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَالَّذِينَ هَادُوا وَالنَّصَارَىٰ وَالصَّابِئِينَ مَنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَعَمِلَ صَالِحًا فَلَهُمْ أَجْرُهُمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿٦٢﴾﴾[2]، والصابئون هم الذين اهتدوا من غير وحي للحقيقة الإلهية مثل أمية بن أبي الصلت وسائر الحنفاء المعروفين قبل الإسلام والقرآن يؤكد أن محمد ﷺ لم يأت بدين جديد ﴿قُلْ مَا كُنْتُ بِدْعًا مِنَ الرُّسُلِ وَمَا أَدْرِي مَا يُفْعَلُ بِي وَلَا بِكُمْ إِنْ أَتَّبِعُ إِلَّا مَا يُوحَىٰ إِلَيَّ وَمَا أَنَا إِلَّا نَذِيرٌ مُبِينٌ ﴿٩﴾﴾[3]، ولم يأت بدين غريب على الإنسانية: ﴿فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًا فِطْرَتَ اللَّهِ الَّتِي فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْهَا﴾[4]، ولا بدين مناقض ﴿شَرَعَ لَكُمْ مِنَ الدِّينِ مَا وَصَّىٰ بِهِ نُوحًا وَالَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ وَمَا وَصَّيْنَا بِهِ إِبْرَاهِيمَ وَمُوسَىٰ وَعِيسَىٰ أَنْ أَقِيمُوا الدِّينَ وَلَا تَتَفَرَّقُوا فِيهِ﴾[5].

وهنالك طائفة من الأحاديث تعزز هذا الفهم قال النبي (صلى الله عليه وسلم): «الْأَنْبِيَاءُ إِخْوَةٌ مِنْ عَلَّاتٍ أُمَّهَاتُهُمْ شَتَّى وَدِينُهُمْ وَاحِدٌ»[6].

هنالك فهمان: فهم إسلامي طائفي ينكر ما للأديان الأخرى من قيمة روحية وخلقية. وفهم أوسع هو ما ذهبنا إليه.

وفي الحقيقة فإن وجود ثنائية في فهم النصوص الإسلامية موجود في أمور كثيرة إذ أن هذه الثنائيات كثيرة في الإسلام، مثل قوله تعالى: ﴿اتَّقُوا اللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِ﴾[7] وقوله:

(1) سورة الأعراف الآية ١٧٢.
(2) سورة البقرة الآية ٦٢.
(3) سورة الأحقاف الآية ٩.
(4) سورة الروم الآية ٣٠.
(5) سورة الشورى الآية ١٣.
(6) رواه البخاري ومسلم وأبو داود.
(7) سورة آل عمران لآية ١٠٢.

﴿ فَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ مَا ٱسْتَطَعْتُمْ ﴾ [1]. ومثل قوله تعالى: ﴿كُفُّوٓا۟ أَيْدِيَكُمْ وَأَقِيمُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ ﴾ [2] وقوله: ﴿أُذِنَ لِلَّذِينَ يُقَٰتَلُونَ بِأَنَّهُمْ ظُلِمُوا۟ ۚ وَإِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ نَصْرِهِمْ لَقَدِيرٌ ﴿٣٩﴾ ﴾ [3]. ونحن نعلم أن هناك آيات محكمة وآيات متشابهة فعلينا أن نهتدي للمتشابهة عن طريق الحكمة، ومقاصد الشريعة، وغيرها من الوسائل التي تطرقنا إليها في المقدمة.

إن الفهم المتسامح لهداية الإسلام هو الذي يطابق مقاصد الشريعة وهو الذي يواكب ظروفنا المعاصرة وهو الذي يخدم مصلحة الإسلام لأن في مناخه صار الإسلام أوسع الأديان انتشارا في كل القارات. ولكن مع هذا الفهم الواسع ماذا يبقى للإسلام من خصوصية؟.

يبقى له:

أولا: أنه الدين الوحيد بين الأديان العالمية الذي يقبل التعددية الدينية من حيث المبدأ لا كأمر واقع. فالأديان الكبرى الأخرى مكبلة بقيود لا تسمح لها بالحركة إلا على حساب إسقاط بعض عقائدها: فالهندوكية مقترنة بالاثنية الهندية وهي والبوذية تعتبران العالم شرا لا تتحقق النجاة إلا بالخلاص منه. واليهودية تقترن بصورة عضوية بأصل اثني. والمسيحية تفترض سقوط الإنسانية كلها في الشر الذي يحيط بها حتما إلا إذا آمنت بفداء السيد المسيح عليه السلام.

الإنسانية محتاجة للدين ولكن الدين الذي يناسبها هو الذي ينطلق من قيم روحية وخلقية تقوم على مقاييس غير ذاتية، وفي نفس الوقت تتعامل مع الحياة الدنيا بإيجابية وتتطلع لدين لا يحصر القيمة الدينية حصرا طائفيا. هذان الشرطان لا

(1) سورة التغابن الآية ١٦.

(2) سورة النساء الآية ٧٧.

(3) سورة الحج الآية ٣٩.

يتوافران إلا في الإسلام مما يعطيه خصوصية استيعابية لا خصوصية انطوائية.

ثانيا: الأديان الأخرى حققت جدوى روحية وخلقية وأهملت العدالة الاجتماعية وهذه ميزة ركزت عليها الرسالة المحمدية، وانفردت بختم الرسالات.

ثالثا: الأديان الأخرى تواجه مشكلة التناقض بين الوحي والعقل، وبين الغيب والطبيعة، ولكن الإسلام وهو يعني الامتثال لإرادة الله يدخل في تلك الإرادة حقائق الوحي، وقوانين الطبيعة، والعقل، وحرية الاختيار كما أوضحنا.

٥- الإسلام والأخلاق:

الأخلاق هي مراجع النفس الإنسانية وركائز تماسك المجتمعات، الفكر العلماني في الغالب يقيم الأخلاق على المنافع والفكر الإسلامي المنكفئ يقيمها على فهم نصوصي مغلق لأوامر الشارع ونواهيه. ولكن الفهم الصحيح هو أن للأخلاق أسساً موضوعية تبدأ في أدنى حالاتها بالمماثلة. أي أن تفعل للآخرين ما تحب أن يفعله لك الآخرون. وهذا يطابق الآية: ﴿فَمَنِ ٱعْتَدَىٰ عَلَيْكُمْ فَٱعْتَدُوا۟ عَلَيْهِ بِمِثْلِ مَا ٱعْتَدَىٰ عَلَيْكُمْ﴾[1]. وتتدرج الأخلاق سمواً لتقوم على إثبات ما يتعارف الناس على حمده وإنكار ما يتعارفون على ذمه. أي تقوم على المعروف والمنكر كما نصت الآية: ﴿يَأْمُرُهُم بِٱلْمَعْرُوفِ وَيَنْهَىٰهُمْ عَنِ ٱلْمُنكَرِ وَيُحِلُّ لَهُمُ ٱلطَّيِّبَٰتِ وَيُحَرِّمُ عَلَيْهِمُ ٱلْخَبَٰٓئِثَ﴾[2]. وتسمو الأخلاق لتبلغ درجة أداء الواجب على حساب المنفعة الذاتية «الإيثار»: ﴿وَيُؤْثِرُونَ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ﴾[3].

هذه أسس موضوعية للأخلاق والشرع الإسلامي يقرها، وبإقرارها يسبغ عليها

(1) سورة البقرة، الآية: ١٩٤.

(2) سورة الأعراف، الآية: ١٥٧.

(3) سورة الحشر، الآية: ٩.

قيمة روحية ويرتب على إتيانها جزاءاً أخروياً ورضاً إلهياً.

٦- التأصيل بلا اكتفاء:

استطاع الاجتهاد التقليدي الإسلامي أن يصدر أحكاما في كافة القضايا، وقد اعتبرت هذه الأحكام مؤسسة على النصوص المقدسة في القرآن والسنة. نصوص انطلق منها المجتهدون من السلف الصالح وبإعمال آليات القياس والإجماع مددوا أحكام تلك النصوص، وبينما أئمة السلف المجتهدون لم يوجبوا على الخلف اتباع اجتهاداتهم على نحو ما جاء في أحاديثهم ذما للتقليد، فقد أتى حين من الدهر على حركة الفقه الإسلامي سادت فيه أطروحة قفل باب الاجتهاد فأوجبت على الخلف اتباع السلف على نحو ما جاء في جوهرة التوحيد:

وما لك وسائر الأئمة ... وأبو القاسم هداة الأمة

فواجب تقليد حبر منهم ... كذا حكى القوم بقول يفهم

أطروحتي التي ما برحت أكررها أن هذا الركود الفكري المؤسس على التقليد لم ينشأ من فراغ بل سببته عوامل كثيرة داخلية وخارجية:

العوامل الداخلية: أهمها ثلاثة:

العامل الأول: معرفي؛ وفحواه أن حقائق الوحي فصلت في الكتاب والسنة وأن ما فعله المجتهدون من السلف هو استخدام القياس والإجماع وسائر أدوات الاجتهاد المشروعة لتمديد تلك الحقائق حتى تشمل كل الحياة الخاصة والعامة. ولذلك صارت النتيجة تبياناً للإرادة الإلهية بعلم واجتهاد السلف فما على الخلف إلا اتباعهم.

كل العلوم سوى القرآن مشغلة ... إلا الحديث وإلا الفقه في الدين

العلم ما كان فيه قال حدثنا ما ... سوى ذاك وسواس الشياطين

العامل الثاني: استبدادي؛ لأسباب تاريخية فصلتها في كتابي «الدولة في الإسلام»

تحولت الخلافة إلى ملك عضود. ومنذ ذلك الحين تعاقبت على الأمة الإسلامية دول غيبت الشورى والمشاركة وفرضت سلطة أحادية بمنطق القوة على حد تعبير «يزيد ابن المقفع» الذي حضر مع معاوية مجلس البيعة لابنه يزيد فقام وقال: أمير المؤمنين هذا وأشار إلى معاوية، فإن هلك فهذا وأشار إلى يزيد، ومن أبى فهذا وأشار إلى سيفه. فقال له معاوية: اجلس فإنك سيد الخطباء. هذه المقولة تشكل في جوهرها دستور كافة الدول التي تعاقبت على حكم المسلمين إلا قليلا نادرا.

الحكم الأحادي وضع قيدا صارما على كل اجتهاد يمس شرعية السلطة من قريب أو بعيد فالإمام مالك جلد لأنه قال «ليس على مكره يمين» وهذا يمس شرعية بيعة الإكراه.

العامل الثالث: دفاعي؛ لقد انفتح المسلمون على كافة حضارات وثقافات وأديان العالم المعمور فأثروا فيها وتأثروا بها، فخشي حماة العقيدة والشريعة من حلوليات الاستشراق وعقلانيات اليونان، والتمسوا دفاعات كثيرة مثل مقولة: «من تمنطق تزندق»أما الفلسفة:

لا خير فيما الفل أوله وآخره سفه!

هيمنة حزمة التقليد، والاستبداد، والانكفاء؛ مهدت السبيل للغزاة ورسخت عدم الرضا عن الذات والإعجاب بالوافد.

العوامل الخارجية:

هنالك أسباب خارجية لسيادة ذهنية الانكفاء في العالم الإسلامي وإعطائها زخما عاطفيا كبيرا.

لقد اتسم اللقاح الحضاري العالمي على طول التاريخ بالسمات الآتية:

أولا: الحركة البطيئة. فالبوذية انتشرت في الصين بعد ستة قرون من ظهورها في شمال الهند.

ثانيا: الانحصار الجغرافي. فالهندوسية انحصرت في شبه القارة الهندية وكذلك الحضارة اليابانية.

حضارتان فقط من بين الحضارات العالمية انفردتا بأمرين هامين هما: **الأول:** الانتشار السريع، **والثاني:** تجاوز الجهوية إلى العالمية. هاتان الحضارتان هما: الحضارة الإسلامية والحضارة الغربية الحديثة. هذه الصفة المشتركة جعلتهما متنافستين وأعطت التنافس بينهما خصوصية.

لمدة ألف عام كانت القوة السياسية والعسكرية الإسلامية خطرا مباشرا على وجود واستقلال دول أوروبا الغربية. ومع محافظة دول أوروبا على استقلالها السياسي والعسكري، فإن فكرها وثقافتها وحضارتها استمدت كثيرا من عناصرها ومكوناتها من الحضارة الإسلامية. لهذه الأسباب صارت نظرة الحضارة الغربية للحضارة الإسلامية محملة بأعباء وخصوصيات وآراء ومشاعر مختلفة عن رؤيتها لأية حضارة أخرى.

كل حضارات الإنسان في أوج مجدها أظهرت نزعة استعلائية على الآخرين. وكل الحضارات المغلوبة أظهرت شعورا بالدونية نحو الحضارة الغالبة وحاولت تقليدها أو نقمت عليها واستعدت لمواجهتها. الفرق هو أن الحضارة الغربية الحديثة أظهرت درجة أعلى من القوة، والهيمنة، والمثابرة، والعالمية. وهي تواجه كافة حضارات العالم اليوم بمنطق الاستعلاء، وهي مع هذا تعاني من عيوبٍ أساسية هي:

أولاً: غياب الغايات والخلو من الأهداف العليا التي ترسمها عادةً المثل الروحية العليا والأخلاق. هذا العيب أفرز ثلاثة عيوب حوّل العلم إلى العلموية والتقنية إلى

التقنوية والسياسة إلى الميكافيلية.

ثانياً: الاستعلاء على الآخرين وهذا العيب أفرز ثلاثة عيوب أخرى هي: العجب الذاتي، الاستخفاف بعطاء الآخرين والعدوانية.

إن خصوصية العلاقة بين الإسلام والغرب، وعيوب الحضارة الغربية المذكورة، في ظل هيمنة هذه الحضارة كلها عوامل تشجع الاتجاه الانكفائي في رفض الحضارة الغربية المطلق والانكفاء على الماضي ورفض التحديث جملة وتفصيلا.

إن تعاملنا باستخفاف مع الحضارة الغربية إنكاراً لمنجزاتها وتركيزاً على عيوبها وهمٌ سخيف، ففي هذه الحضارة منجزات إنسانية عظيمة، والانكفاء دون تلك المنجزات يكلف أصحابه ثمناً باهظاً دون أن ينال من الحقيقة شيئاً.

لا بد من نشدان التأصيل بشكل صحوي بعيدا عن تقليد الماضي والانكفاء عليه رفضا لمنجزات الحضارة الحديثة.

٧- التحديث بلا تبعية:

من أفضل كتب المستشرقين عن الإسلام كتاب «مغامرة الإسلام The Venture of Islam» لكاتبه العلامة الأمريكي مارشال هودجسون[1]. شرح هذا الكتاب كيف اندفع الإسلام في القرن السابع ليهيمن على الربع المعمور من العالم لمدة ألف عام من ٧٠٠م إلى ١٧٠٠م. لكن هذا التفوق الإسلامي أطاحت به عوامل تعفن داخلية، وأفسده الركود الفكري والاستبداد السياسي حتى صار في الحالة التي وصفه بها مالك بن نبي (حالة القابلية للاستعمار قبل أن يغزوه الاستعمار)، وصار من ألِمُوا بحضارة الغرب مُعجبين بها قبل أن تفتح ديارهم جيوشه. لقد أبدى الطهطاوي المصري، وخير الدين التونسي إعجابهما بحضارة

(1) Marshal Hodgson- - The Venture of Islam

أوروبا قبل الاحتلال الأوروبي لوطنيهما.

لقد كانت ملامسات الغرب للإسلام في الماضي القديم كلها لصالح الإسلام لكن الغرب وبعد فترة ظلامية سماها القرون الوسطى خاض حركة الإصلاح ثم البعث ثم التنوير، ومنذ ١٦٠٠م طفر عبر ثلاث ثورات في ثلاثة مجالات هامة: حقق ثورة سياسية من منطلقات الثورة الفرنسية، وثورة اقتصادية من منطلقات الثورة الصناعية في بريطانيا، وثورة ثقافية حققت حرية البحث العلمي، وبموجب هذه الطفرات صنع الغرب الحضارة الحديثة.

الحداثة بكل جوانبها عمت دول أوروبا الغربية وبفضلها حققت لهذه الدول تفوقاً علميًّا وتكنولوجيًّا وسياسيًّا واقتصاديًّا وعسكريًّا مكّنها من إخضاع العالم لسيطرتها فاقتسمت العالم (بما فيه العالم الإسلامي) الإمبراطوريات الأوربية « البريطانية، والفرنسية، والإيطالية، والألمانية، والهولندية، والبرتغالية». الحضارة الأوروبية الحديثة بهرت العالم بصورة سار بها الركبان ورددتها الأمثال العامية: «كل فرنجي برنجي» ، «النصارى للبصارة» .. الخ.

وعلى صعيد المفكرين صار التغني بحضارة الغرب واسع الانتشار قال ضياء غوك ألب التركي[1] : «إن حضارة الغرب هي المستقبل وإن حضارتنا الماضية إلى الإعدام»، وما قاله د. طه حسين[2] في كتابه «مستقبل الثقافة في مصر» يقع في ذات النطاق. وكان سلامة موسى في كتابه (اليوم والغد) أقوى عاطفة إذ قال: « أنا كافرٌ

(1) ضياء غوك ألب التركي ملهم أتاتورك وأبوه الروحي وقد عبر عن آرائه المنصبة في استبدال الإسلام بالقومية التركية للأتراك في:
The principles of Turkism، Turkish nationalism and Western Civilization

(2) طه حسين (٢٨ أكتوبر ١٨٨٩ - أكتوبر ١٩٧٣م)، عميد الأدب العربي ، ولد في محافظة المنيا في أعالي مصر، نصب وزيرا للتربية عام ١٩٥٠.

بالشرق مؤمنٌ بالغرب». لقد كان التصور الغالب هو أن الحضارة الغربية بكل ما فيها تمثل مستقبل الإنسانية وليس على الحضارات الأخرى إلا أن تجد لنفسها مقابر تدفن فيها. ونادى برهان غليون بعلمنة الإسلام؛ وحرص نصر حامد أبو زيد على تاريخية النص القرآني؛ ونادى محمد عابد الجابري إلى قطيعة ابستمولوجية (أي معرفية) مع التراث. وما إعجاب لجنة نوبل برواية أولاد حارتنا لنجيب محفوظ[1] وهي من أسوأ مؤلفاته وأكثرها تهافتا إلا إنها حولت تراثنا الديني إلى خرافة وأكدت حتمية نهايتها في عصر العلم. ليس قدرنا أن نكون أسرى للانكفاء أو نقيضه الاستلاب. بل عبر الاجتهاد الجديد نحقق التأصيل بلا انكفاء، والتحديث بلا تبعية.

وحتى عندما انطلقت من رحم الحضارة الغربية أيديولوجية تتحداها: الأيديولوجية الشيوعية فإن الافتراض الشيوعي صار أنها الوارثة للنظام الرأسمالي وبالتالي لمستقبل الإنسانية كله.

وأثناء الحرب الباردة (١٩٤٦ – ١٩٩١م) كان الافتراض هو أن إحداهما سوف ترث العالم لذلك عندما انتصر النظام الغربي لم يكن غريباً أن يعلن بعض مفكريه نهاية التاريخ، وهيمنة النظام الغربي على العالم. والمفاهيم السائدة في ذهن هؤلاء لا تفرق بين الحداثة والتغريب، فالفهم الدارج هو على حد تعبير طه حسين: « الغرب بخيره وشره هو مستقبل الإنسانية».

شبهات تفوق الغرب:

صحب هذا الإعجاب بالغرب شبهات عززت أحقيته بالتفوق أهمها:

(١) ولد نجيب محفوظ سنة ١٩١٢ بأحد الأحياء العتيقة بالقاهرة -شغل وظيفة مستشار وزير الثقافة المصرية لشؤون السينما. أنتج العديد من القصص. تحصّل على جائزة نوبل للآداب سنة ١٩٨٨.

أولاً: الحضارة الغربية أعطت صورة لنفسها تصفها بالتفرد والعبقرية والنقاء الذاتي. قال مارتن برنال في كتابه: «أثينا السوداء» مبدداً هذا الوهم أنه «لدى دراسته لمفردات اللغة اليونانية اكتشف أن ٢٥٪ منها تعود لأصول سامية، وأن ٢٥٪ أخرى تعود لأصول مصرية بما في ذلك معظم أسماء الآلهة والأماكن اليونانية، وتعود بقية المفردات لأصول هندية أوربية». وقال : إنه عندما درس تاريخ اليونان القديم وجد أن اليونانيين القدامى كانوا يعتقدون أن حضارتهم نشأت نتيجة استيطان مصري فينيقي، واختلاط هؤلاء مع سكان أصليين حوالي عام ١٥٠٠ قبل المسيح. وأن اليونانيين استمروا يستمدون كثيراً من ثقافات الشرق الأدنى[١].

وكشف منتجمري واط في كتابه« أثر الحضارة الإسلامية العربية على أوربا القرون الوسطى»، ما استمده الغرب منها في كل مجالات الحياة[٢].

وفي الحالين أثبت الكاتبان أن الشوفينية الاثنية والثقافية هي التي جعلت الأوربيين يحجبون هذه الحقائق.

ثانياً: شبهة موضوعية المعارف الغربية وأنها خالية من العلائق الذاتية وأنها صالحة لتكون مفخرة وانتماء لكل الإنسانية.

لقد كان أول ما فتح ذهني - وأنا طالب بأكسفورد - لما في المعارف الغربية من تخليط اطلاعي على كتاب مرجعي كنا ندرسه هو كتاب: «التاريخ الدستوري البريطاني»، لكاتبه: دافيد انسور، تحدث الكاتب عن المهدي في السودان قائلاً : إنه «كان موظفاً لدى الحكومة الخديوية في السودان ثم اشتغل بتجارة الرقيق»! وتتبعت بعد ذلك هذه العيوب في مجالات أخرى فوجدت مزيداً من دلائل التخليط:

(1)مارتن برنال ، أثينا السوداء» الصفحات : ١-٢.

(2)مونتجمري واط ، أثر الحضارة الإسلامية العربية على أوربا القرون الوسطى » الصفحة- ٥.

١. الكتب العلمية تفترض الإلحاد مع أن العلم في حد ذاته لا يستطيع القطع فيما وراء المشاهدات.

٢. استخدام المعارف الأثرية والإنسانية والتاريخية لإثبات دونية الثقافات الأخرى ودعم دعوى رسالة الرجل الأبيض المنوط به تهذيب الإنسان.

٣. بالنسبة للحضارة الإسلامية، فإن كتابي الدكتور إدوارد سعيد -رحمه الله- «المستشرقون» و«تغطية الإسلام» يكشفان مدى تحريف المعارف الغربية للحقائق الموضوعية لخدمة مصالح ذاتية.

ثالثاً: شبهة علمانية الحضارة الغربية وعزلها للدين عن الدولة وعن السياسة. نعم الفكر الأوربي في فترات معينة رفع شعارات من هذا القبيل، فالثورة الفرنسية في قمة حماستها قررت إلغاء الدين واضطهدت رجال الدين وحرمت العبادة، ولكن نابليون الذي انقلب على حكومة الإدارة (١٧٩٩م) خف لمصالحة الكنيسة وعقد معها عهداً.

إن مظاهر العبادة في الكنائس قلت: ولكن الكنائس كمؤسسات دينية، اجتماعية، خيرية وتعليمية في المجتمعات الغربية قوية للغاية. ومهما نصت الدساتير الغربية على «علمانيتها» فإن وجود الدين في حياتها الدستورية والسياسية لا تخطئه العين. فرؤساء الدول، والشهود، والمتهمون، يؤدون قسماً على الإنجيل قبل ممارسة أدوارهم التنفيذية والتشريعية والقضائية، قسماً يفترض التزامهم بمحتواه وهو قسمٌ لا معنىً له -كما قال جورج واشنطون الرئيس الأمريكي - إذا لم يكن المقسمون معترفين بقدسية الإنجيل. وكثير من البلدان الأوربية ترسم الصليب على العلم. والدولار أيقونة الاقتصاد الحديث مكتوب عليه ﴿عَلَى ٱللَّهِ تَوَكَّلْنَا﴾. والأحزاب السياسية في الغرب تتخذ أسماءً مسيحية وحتى إن لم تفعل فإنها تتنافس في كسب

تأييد الكنائس بحيث يمكن تحديد صلة كل حزب بهذه الكنيسة أو تلك.

ولرجال الدين دور كبير في الحياة السياسية في البلدان الغربية لاسيما في الولايات المتحدة، وكان ٦٣٪ من الأمريكيين المتدينين قد صوتوا لبوش في الانتخابات قبل الماضية ورجحوا كفته، بل قال سيمور مارتن« إن الولايات المتحدة هي الأكثر تديناً بين الدول الصناعية»[1].أما إعادة انتخابه في انتخابات ٢٠٠٤م، فمع أن حالة الاقتصاد الأمريكي والاضطراب في العراق يدلان على حالة إخفاق فإن على رأس العوامل التي رجحت كفة الرئيس بوش يأتي العامل الديني.

إن الفكر العلماني اللاديني لم يستطع طرد الدين من الدولة ولا من السياسة ولا من الحياة العامة، بل توصلت المجتمعات الغربية لمعادلة تعايش تزيد من تأكيد أن الحضارة الغربية حضارة مسيحية. هذا الوصف لها ليس للإساءة إليها ولكن لنفي حيدتها وعقلانيتها الخالصة.

رابعاً: شبهة انقراض ثقافات الماضي وأن التراث _ على حد تعبير د. زكي نجيب محمود في كتابه الفلسفي عن المنطقة الايجابية_ لايسوى شيئا بل أولى به سلة المهملات[2].

هذا الموقف من ثقافات الإنسان العريقة كان شائعاً ولكنه منذ الثمانينيات تراجع ليخلفه موقف سائد لدى الأوساط العلمية في اليونسكو وغيرها يعترف بقيمة هذه الثقافات.

لقد بين تقرير المفوضية العالمية للثقافة والتنمية، وهي منظمة مكونة بالتعاون بين اليونسكو والأمم المتحدة في نوفمبر ١٩٩٥م بعنوان (التنوع البشري الخلاق) كيف

(1)مجلة نيوزويك الأمريكية عدد ٧ مايو ٢٠٠١م.

(2)د.زكي نجيب محمود غيّر أراءه فيما بعد إبتداءً من كتابه : «تجديد الفكر العربي» .

أن مشاريع التنمية الاقتصادية التي لم تأخذ الثقافة في حسبانها باءت بالفشل، يقول التقرير: «التنمية خارج السياق الإنساني والثقافي نموٌ بلا روح» وبعد تناول كافة الأمور المتعلقة بالثقافة يرى التقرير أن تضاف الثقافة بنداً جديداً في حقوق الإنسان العالمية[1].

خامساً: هنالك تيار علماني في الغرب اتخذ موقفاً عدائيًّا من الدين وحمّله مسؤولية التخلف والظلامية والعنف في الحياة الغربية نفسها، هذه الإدانة للدين في الغرب أسقطها بعض المفكرين المسلمين على دور الإسلام. وجهر هؤلاء بفكرة أن الفكر الحديث الجاد والعلم قد طردا الدين نهائياً من الحياة لتقوم الحياة على العلم.

هذه الشبهات مضافة لحقائق التفوق الغربي خلقت ذهنية شرقية كارهة لذاتها مفتونة بالوافد. هؤلاء يعبّرون عن الحداثة كاستلاب، وموقفهم هذا يغذي موقف الأصل كانكفاء ويؤجج نيران الصدام بينهما في الحرب الأهلية الدائرة في المجتمعات الإسلامية.بل إنهما يقيمان انفصاماً في نفوس كثير من الأفراد بحيث صارت نفس الواحد منهم كالإله الروماني يانوس ذي الرأسين:رأس ينظر في اتجاه والرأس الآخر ينظر في الاتجاه المعاكس • الإله يانوس ذو الرأسين هو الذي سمي به شهر يناير لأنه ينظر في اتجاه السنة الماضية وفي اتجاه السنة الجديدة.

٨- العلوم الطبيعية:

إن من أهم أركان التحديث إطلاق حرية البحث العلمي واعتماد قيمة المعرفة

(1) التنوع البشري الخلاق، ترجمة عربية للكتاب الذي أصدرته المفوضية العالمية للثقافة والتنمية World Committee for Culture and Development WCCD – تحرير وتقديم د. جابر عصفور. القاهرة ١٩٩٧م. ملخص التقرير Our Creative Diversity موجود أيضا على الانترنت في الموقع www.unesco.org/culture/development/wccd

العقلية والتجريبية في كشف قوانين الطبيعة وينبغي اعتبار الطبيعة كتابا كونيا: ﴿مَا خَلَقْنَا ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَآ إِلَّا بِٱلْحَقِّ﴾ [1] وقال تعالى: ﴿قَالَ رَبُّنَا ٱلَّذِىٓ أَعْطَىٰ كُلَّ شَىْءٍ خَلْقَهُۥ ثُمَّ هَدَىٰ ۝٥٠﴾ [2] ينبغي كفالة حرية البحث العلمي والتكنولوجي.

٩- الفنون:

الفن هو استخدام المهارة والخيال لخلق الأشياء، والبيئات، والتجارب الجمالية التي تتأتى المشاركة فيها للآخرين[3]. توجد تصنيفات عديدة للفنون، فهنالك التصوير أو الفنون المرئية (من ذلك الرسم- التلوين- النحت- التصميم الفني- الخزفيات- والعمارة)، والسماع أو الفنون المسموعة (الموسيقى بأشكالها المختلفة)، والآداب (من شعر- نثر فني- رواية- قصة)، ثم الفنون المختلطة مثل الغناء، أو فنون الأداء المختلفة كالرقص والدراما. الاجتهاد الإسلامي التقليدي لم يجد حرجا مع الفنون الأدبية. ولكن -مع استثناء بعض الأشكال الفنية التي تواطأ عليها فنانو دولة المسلمين التاريخية- فإن سائر الفنون الأخرى المرئية والمسموعة والمختلطة قد طردت من أغراض الدين. ونال نصيب الأسد من العداء نوعان من الفنون: السماع (وهو يشمل الموسيقى وآلاتها، والغناء بأشكاله)، والتصوير (وهو يشمل النحت والرسم والتلوين). فصار الفهم التقليدي السائد هو أن الفن -وبدون الإلمام بجوانبه المختلفة المذكورة أعلاه- يجافي الدين ولا يليق إلا بفكر دهري علماني. هذه النظرة منكفئة ومتناقضة تماماً مع الفهم الصحيح لموقف الإسلام من الفن.

لقد تناولت موقف الإسلام من الفن في محاضرة نشرت ضمن كتابي: «على طريق

(1) سورة الأحقاف الآية ٣.

(2) سورة طه الآية ٥٠.

(3) www.britannica.com الموقع في الانترنت: arts

الهجرة الثانية»[1] الدين الإسلامي إيجابي النظرة للعالم، قال تعالى: ﴿وَٱبْتَغِ فِيمَآ ءَاتَىٰكَ ٱللَّهُ ٱلدَّارَ ٱلْـَٔاخِرَةَ ۖ وَلَا تَنسَ نَصِيبَكَ مِنَ ٱلدُّنْيَا ۖ وَأَحْسِن كَمَآ أَحْسَنَ ٱللَّهُ إِلَيْكَ﴾[2]. وقال: ﴿قُلْ مَنْ حَرَّمَ زِينَةَ ٱللَّهِ ٱلَّتِىٓ أَخْرَجَ لِعِبَادِهِۦ وَٱلطَّيِّبَٰتِ مِنَ ٱلرِّزْقِ﴾[3]. والجمال من مقاصد الإسلام في الكون: ﴿ٱلَّذِى خَلَقَ سَبْعَ سَمَٰوَٰتٍ طِبَاقًا ۖ مَّا تَرَىٰ فِى خَلْقِ ٱلرَّحْمَٰنِ مِن تَفَٰوُتٍ ۖ فَٱرْجِعِ ٱلْبَصَرَ هَلْ تَرَىٰ مِن فُطُورٍ ۝٣ ثُمَّ ٱرْجِعِ ٱلْبَصَرَ كَرَّتَيْنِ يَنقَلِبْ إِلَيْكَ ٱلْبَصَرُ خَاسِئًا وَهُوَ حَسِيرٌ ۝٤﴾[4]، وقال عن الأنعام: ﴿وَلَكُمْ فِيهَا جَمَالٌ حِينَ تُرِيحُونَ وَحِينَ تَسْرَحُونَ ۝٦﴾[5]. لقد وظف الناس الأنعام لأغراض نفعية معينة ولكنهم أيضاً التمسوا فيها قيماً جمالية وتغزلوا في جمالها وبنوا صرحاً جمالياً.

لقد فاق القرآن الكتب المقدسة الأخرى بأن نصه واحد محفوظ ونصوصها متعددة مختلف عليها، وفاقها بمعانٍ اشتمل عليها وخلت منها، وفاقها كذلك في أنه إنجاز فني رائع لا تجاريه نصوصها في هذا المجال. لقد أعجز القرآن فصحاء العرب بسوره وآياته مستخدماً كل فنون البلاغة من بيانٍ فيه التشبيه والمجاز والكناية، ومعانٍ بليغة في خبرها وإنشائها، وبديع يحوي الطباق والجناس والاقتباس والسجع والتورية والمقابلة. وكانت خطب النبي ﷺ وأحاديثه نثراً فنياً ممتازاً. وفي كثير من الأحيان استخدم الشعر أسلوباً للتعبير عن موقف:

أنا النبي لا كذب　　أنا ابن عبد المطلب

(1) الصادق المهدي، «على طريق الهجرة الثانية» - ص ٣٧.

(2) سورة القصص الآية ٧٧.

(3) سورة الأعراف، الآية - ٣٢.

(4) سورة الملك، الآيات: ٣-٤.

(5) سورة النحل الآية - ٦.

نعم ليس النبي شاعراً : ﴿وَمَا عَلَّمْنَٰهُ ٱلشِّعْرَ وَمَا يَنۢبَغِى لَهُۥٓ﴾[1]، ولكن هذا لا يمنع أن يستشهد بالشعر كأسلوب فني له مواقفه التي تناسبه، ولا يمنع أن يتذوق الشعر مثلما تذوق شعر حسان وحثه عليه.

وأنشده كعب بن زهير قصيدته الغزلية المادحة (بانت سعاد) فكافأه بأن خلع بردته عليه ولم ينكر من القصيدة إلا عبارة واحدة هي قول زهير: مهند من سيوف الهند مسلول، فقال له: مهند من سيوف الله مسلول.

لقد تعاقب على الأمة الإسلامية عهدان الأموي والعباسي وفيهما صار الحكم ملكاً عضوداً، ونشأ مجتمع دنيوي مترف فيه ما فيه من استخفاف بالدين وتمتع بالملذات، في وجه هذه التيارات اندفعت اتجاهات في الدين أقرب إلى الانطواء والانكفاء واتخاذ موقف نافٍ للعالم، وبما أن الجماليات اتخذت نهج الملذات فقد ظهر تناقض أساسي بين الدين والفن وراجت تفاسير لآيات القرآن وأحاديث نبوية ترسخ التناقض التام بين الدين والفن.

تصدى ابن حزم[2]- وهو من أعلام علماء السلف - لأهم تلك الأحاديث فجرحها[3]، مثلاً حديث جاء فيه: إن الله حرم المغنية وبيعها وثمنها وتعليمها

(1) سورة يس الآية ٦٩.

(2)ابن حزم الظاهري الأندلسي (ت ٤٥٦هـ/ ١٠٦٤م): هو علي بن أحمد بن سعيد بن حزم فارسي الأصل، ولد في قرطبة، كان ظاهري المذهب، ومن أهم كتبه: الفصل في الملل والأهواء والنحل، جوامع السيرة، المحلى في الفقه، الإحكام في أصول الأحكام.

(3)كتب ابن حزم رسالة في الغناء الملهي أمباح هو أم محظور- تعرض فيها لـ١٢ من الأحاديث المانعة للغناء وجرحها وقال: وكل هذا لا يصح منه شيء، وهي موضوعة. ثم أورد ستة من الأحاديث المبيحة. انظر: للتوسع كتاب د. محمد عمارة: الإسلام والفنون الجميلة - دار الشروق- القاهرة. حيث أورد نصوصا لابن حزم وللإمام الغزالي تؤيد السماع، ونصوصا لابن تيمية تمنعه، وقد قرأها ضمن الحال المتردي للمسلمين آنذاك.

والاستماع إليها ، وحديث آخر: نهي النبي ﷺ عن تسع، والغناء أحدها. وفسر كثير من المفسرين قوله تعالى: ﴿ وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَشْتَرِى لَهْوَ ٱلْحَدِيثِ لِيُضِلَّ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ وَيَتَّخِذَهَا هُزُوًا ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ مُّهِينٌ ﴿٦﴾ ﴾[1]. قالوا: لهو الحديث هو الغناء.

قال القرطبي[2] في تفسيره: إن سبب نزول هذه الآية هو النضر بن الحارث بن علقمة وكان يشتري القيان ويعلمهن أساطير الأولين للتغني بها كيداً للإسلام.

وأتوا بأحاديث في تحريم آلات الموسيقى مثل: أمرني ربي بنفي الطمبور والمزمار، وحديث: نهي رسول الله ﷺ عن ضرب الدف ولعب الصنج وصوت الزمارة . الأول رواه إبراهيم بن يسع، قال عنه البخاري[3]: حديث منكر. والثاني من رواية عبد الله بن ميمون عن مطر بن سالم، والأول «ذاهب الحديث» والثاني «شبه مجهول»[4].

ماذا في هذه الآلات؟

إنها تأتي بأصوات تحاكي أصوات الطيور المغردة والحيوانات، فهي تحاكي أصواتاً طبيعية وتنظمها في أنغام لتستميل الطباع مثلما هو أثرها في عالم الحيوانات والطير، وهي في هذا المجال على حد التعبير القرآني: ﴿أُمَمٌ أَمْثَالُكُم﴾[5]، وفي إشارة لهذا الميل

(1) سورة لقمان ، الآية – ٦ .

(2) القرطبي (٥٧٨- ٦٧١هـ/ ١١٨٢-١٢٧٤ م): هو محمد بن أحمد بن أبي بكر بن فرح الخزرجي الأنصاري القرطبي. أبو عبد الله من أهل قرطبة وإليها نسبته. أشهر تصانيفه: (الجامع لأحكام القرآن) المعروف بتفسير القرطبي.

(3) البخاري (الإمام) (١٩٤ - ٢٥٦هـ/ ٨٠٩- ٨٦٩م): محمد بن إسماعيل بن إبراهيم بن المغيرة بن بزدوبه البخاري الجعفي، إمام أهل الحديث وصاحب «الجامع الصحيح» المعروف بصحيح البخاري.

(4) المرجع نفسه ، ص ٥٦ .

(5) الأنعام الآية ٣٨.

الفطري والتشابه بين المخلوقات قال الإمام أبو حامد الغزالي[1]: «من لم يحركه العود وأوتاره، والربيع، وأزهاره فهو فاسد المزاج ليس له علاج، زائد في غلظ الطبع وكثافته، على الجمال والطيور، بل على جميع البهائم. فإنها جميعا تتأثر بالأنغام الموزونة»[2].

هنالك أحاديث كثيرة تبيح السماع والآلات، مثلاً روت عائشة أن امرأة جاءت إلى رسول الله ﷺ فقال: «**يا عائشة أتعرفين هذه؟**» **قلت: لا، قال: «قينة بني فلان، أتحبين أن تغنيك»** ففعلت. وفي يوم عيد كان الحبش يلعبون في مسجد النبي ﷺ فأذن النبي لعائشة بمشاهدتهم حتى ملت، وكان يقول: **دونكم بني أرفدة، أمنا بني أرفدة.**

صحيح أن الإسلام نهى عن الصور والتماثيل، لأنها كانت لأوثان، أي لأنها كانت ذات دلالة دينية شركية، ولكن إذا انتفى هذا الطابع فلا حرمة. قال تعالى: ﴿ يَعْمَلُونَ لَهُۥ مَا يَشَآءُ مِن مَّحَٰرِيبَ وَتَمَٰثِيلَ وَجِفَانٍ كَٱلْجَوَابِ وَقُدُورٍ رَّاسِيَٰتٍ ۚ ٱعْمَلُوٓاْ ءَالَ دَاوُۥدَ شُكْرًا ۚ وَقَلِيلٌ مِّنْ عِبَادِىَ ٱلشَّكُورُ ﴿١٣﴾ ﴾[3]، فالتماثيل هنا عند اعتبارها فناً لا رمزاً دينياً تعد من نعم الله للإنسان.

الصور، التماثيل، الأقوال، الأفعال، كل هذه المسائل إذا كان القصد منها دينياً شركياً أو وضعت في مكان بحيث تشغل المصلي عن صلاته أو العابد عن عبادته

(1) الغزالي (أبو حامد) (٤٥٠- ٥٠٥هـ/ ١٠٥٨- ١١١١م): هو محمد بن محمد بن أحمد الغزالي الطوسي، درس فقه الشافعية ثم تعمق في دراسة الفلسفة وكتب (تهافت الفلاسفة) متشككا في قيمة العلم وبراهينه المنطقية، ولكنه بعد ذلك حاول رد الاعتبار للعقل أساسا للعلم كما جاء في كتابه (إحياء علوم الدين).

(2) أبو حامد الغزالي الإمام، إحياء علوم الدين- الجزء الثاني كتاب آداب السماع والوجد. الكتاب الثامن من ربع العادات، ص ٢٧٥- المكتبة التجارية الكبرى- مصر.

(3) سورة سبأ، الآية-١٣.

فإنها منكرة، أما إذا كان القصد منها واضحاً لأغراض عملية أو جمالية فلا حرمة. لقد سك أمير المؤمنين عمر بن الخطاب عملة عليها صورة الملك الفارسي، وعائشة روت أنها كانت تلعب بالعرائس فلم ينهها النبي ﷺ.

أقول:

١. الإسلام دين عمارة للدنيا وللآخرة، وهو دين فطرة يقرها وينظم ممارستها.

٢. الفن من فطرة الإنسان، وله موقعه في حضارة الإسلام ونظامه. وهو من ضمن حاجات الإنسان الأساسية العشرة الواجب إشباعها[1]، والفن يقوم بوظائف عديدة منها: الرقي الذوقي، فتح المدارك، الترويح، الاتصال بالقيم العليا وتطوير الصناعات (مدنية وعسكرية)، وغير ذلك.

٣. لقد وظف الفن في مجالات دينية شركية وفي مجالات الملذات الهابطة، هذا النوع من الفن محرم لأنه ترويج للانحراف لا لأنه فن.

٤. لأسباب تاريخية صار العدد الأكبر من المسلمين، كما يظهر في خطب الجمعة والصفحات الدينية في الصحف يرون وجود تناقض بين الدين والفن، الحقيقة التي تؤكدها التجربة الإنسانية هي أن الدين والفن كلاهما يدفع الإنسان بقوة الإيمان وبروعة الفن إلى تجاوز قدراته.

لا أحد يشك في أن الإيمان كفيل بمضاعفة قدرات صاحبه الطبيعية، أما الفن فقد صور آثاره ابن الفارض تصويراً جميلاً:

فطيف خيال الظل يهدي إليك ... في كرى اللهو ما عنه الستائر شقت

(1) وقد تعرضت كثيرا لتلك الحاجات وهي الحاجات: الروحية- العقلية- العاطفية- المادية- الأخلاقية- الجمالية- البيئية- الرياضية- الاجتماعية- والترفيهية. انظر مثلا: الصادق المهدي: «نداءات العصر»، ٢٠٠١م- الخرطوم.

١٠- البيئة الطبيعية:

الإسلام يؤكد على سلامة البيئة الطبيعية، الآيات القرآنية التي تمدح خلق الله وتشير لمكونات البيئة الطبيعية من فلك وبحار وجبال وحيوانات وحشرات كثيرة، قال تعالى: ﴿وَمَا مِن دَآبَّةٍ فِي ٱلْأَرْضِ وَلَا طَٰٓئِرٍ يَطِيرُ بِجَنَاحَيْهِ إِلَّآ أُمَمٌ أَمْثَالُكُم مَّا فَرَّطْنَا فِي ٱلْكِتَٰبِ مِن شَيْءٍ ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّهِمْ يُحْشَرُونَ ﴿٣٨﴾﴾ (١)، وقال: ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَخْرَجْنَا بِهِۦ ثَمَرَٰتٍ مُّخْتَلِفًا أَلْوَٰنُهَا وَمِنَ ٱلْجِبَالِ جُدَدٌۢ بِيضٌ وَحُمْرٌ مُّخْتَلِفٌ أَلْوَٰنُهَا وَغَرَابِيبُ سُودٌ ﴿٢٧﴾﴾ (٢)، وهي تؤكد حسن صنعة الخالق كما تؤكد ضرورة حماية البيئة، فالقرآن الكريم يحمل الإنسان مسؤولية إفساد البيئة بقوله: ﴿ظَهَرَ ٱلْفَسَادُ فِي ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ بِمَا كَسَبَتْ أَيْدِي ٱلنَّاسِ لِيُذِيقَهُم بَعْضَ ٱلَّذِي عَمِلُوا۟ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ﴿٤١﴾﴾ (٣)، بل لقد أشار لأن خراب الأرض والقتال بين الناس هو مما تنبأت به الملائكة لدى خلق آدم عليه السلام: ﴿وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَٰٓئِكَةِ إِنِّي جَاعِلٌ فِي ٱلْأَرْضِ خَلِيفَةً قَالُوٓا۟ أَتَجْعَلُ فِيهَا مَن يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ ٱلدِّمَآءَ وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَ ۖ قَالَ إِنِّيٓ أَعْلَمُ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴿٣٠﴾﴾ (٤).

والتعاليم الإسلامية تحث على حماية البيئة الطبيعية وفقا للمبادئ التالية:

أولا: مقاصد الشريعة وخاصة: درء المفاسد وجلب المصالح ولا ضرر ولا ضرار، كلها مبادئ تعني ضرورة الحفاظ على البيئة الطبيعية وحماتيها.

ثانيا: نصوص عديدة تحرم الإفساد في الأرض: قال تعالى: ﴿وَلَا تُفْسِدُوا۟ فِي ٱلْأَرْضِ بَعْدَ إِصْلَٰحِهَا وَٱدْعُوهُ خَوْفًا وَطَمَعًا ۚ إِنَّ رَحْمَتَ ٱللَّهِ قَرِيبٌ مِّنَ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿٥٦﴾﴾

(1) سورة الأنعام الآية ٣٨.
(2) سورة فاطر الآية ٢٧.
(3) سورة الروم الآية ٤١.
(4) سورة البقرة الآية ٣٠.

ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿٥٦﴾ ﴾[1] وقال: ﴿ وَإِذَا تَوَلَّىٰ سَعَىٰ فِي ٱلْأَرْضِ لِيُفْسِدَ فِيهَا وَيُهْلِكَ ٱلْحَرْثَ وَٱلنَّسْلَ ۗ وَٱللَّهُ لَا يُحِبُّ ٱلْفَسَادَ ﴿٢٠٥﴾ ﴾[2]، ﴿ وَلَا تُفْسِدُوا فِي ٱلْأَرْضِ بَعْدَ إِصْلَٰحِهَا ﴾[3].

ثالثا: الحث على الطهارة والتطهر، وهي نقيض التلوث، وهذا موجود في العديد من النصوص: قال تعالى: ﴿وَثِيَابَكَ فَطَهِّرْ[4]﴾، وقال رسول الله ﷺ: «**النظافة من الإيمان**».

رابعا: الحث على الاهتمام بالزراعة وغرس الأشجار ولا يخفى أن هذه خاصة في البيئة الفقيرة بالأشجار تؤدي إلى حماية البيئة من التصحر. قال رسول الله ﷺ: « **مَا مِنْ مُسْلِمٍ يَغْرِسُ غَرْسًا أَوْ يَزْرَعُ زَرْعًا فَيَأْكُلُ مِنْهُ طَيْرٌ أَوْ إِنْسَانٌ أَوْ بَهِيمَةٌ إِلَّا كَانَ لَهُ بِهِ صَدَقَةٌ**». وقال: «من نصب شجرة، فصبر على حفظها، والقيام عليها حتى تثمر، فإن له في كل شيء يصاب من ثمرها صدقة عند الله عز وجل». وغير ذلك من الأحاديث التي تحث على غرس الفسيلة حتى ولو كادت القيامة أن تقوم.

هذه المبادئ الإسلامية كلها تصب في الاهتمام بالبيئة الطبيعية، وتعطي الاهتمام بها قيمة روحية عظيمة حيث يؤجر من يحفظها، ويؤثم من يفسد في البر والبحر والحرث والنسل.

حماية البيئة من منظور عالمي

كوكب الأرض هو موروث الإنسانية المشترك وهو يواجه مخاطر كثيرة جلها من صنع الإنسان، ففي الحاضر خطر على الموارد الطبيعية، وفيه خطر على البيئة

(1) سورة البقرة الاية ٥٢.

(2) سورة البقرة الآية ٢٠٥..

(3) سورة الأعراف الآيات ٥٦، ٨٥.

(4) سورة المدثر الآية ٤.

الطبيعية، وخطر على أنواع النباتات والحيوانات . وخطر على الحياة البشرية نفسها. هذا الخطر يدل عليه انحسار الغطاء النباتي، وزحف الصحراء، وقلة المياه العذبة، وانتشار الجفاف، وأخيراً ظاهرة الاحتباس الحراري.

إهمال البيئة الطبيعية كان جزءا من توجهات عامة أثبتت الدراسات والتجارب بطلانها. هي مقولة: أن الاهتمام بقضايا البيئة الطبيعية ليس أولوية للبلدان النامية. بينما ثبت أن لتدهور البيئة الطبيعية آثار اقتصادية سالبة وأن الاستثمار فيها يؤدي لفوائد تنموية متعددة الوجوه.. كما أن التنمية في البلدان النامية في أكثر الحالات أهملت القطاع التقليدي. وفي السودان أجريت للحكومة دراسة في عام ١٩٨٧م اتضح أن الاستثمارات، والمدخلات، والخدمات موزعة على القطاع الحديث والتقليدي بنسبة ٩٥٪ للأول و٥٪ للثاني. وهذا مقياس لدرجة الاستخفاف بالريف والبادية أو بالعبارة السياسية التهميش. والتهميش الذي غذى الاحتجاج المسلح. الاهتمام بالقطاع التقليدي من أركان الحكومة الراشدة وهو من أركان بناء السلام.

على الصعيد الفني دق نادي روما في الثمانينيات ناقوس الخطر. وتتالت المؤتمرات والحلقات الدراسية لتغطي كافة وجوه عدوان الإنسان على البيئة الطبيعية. انتقل الاهتمام من المجال الفني العلمي إلى المجال الدولي الذي خطى الخطوات الآتية: انعقاد قمة الأرض الأولى في ريودي جنيرو في عام ١٩٩٢م والذي اتخذت فيه قرارات أهمها ضرورة إبرام اتفاقية للحد من انبعاث الغازات الضارة بالبيئة. ثم إعلان الأمم المتحدة عن أهداف الألفية الثمانية، وواحد منها حماية البيئة الطبيعية، وعقد قمة الأرض الثانية عقدت في عام٢٠٠٢م في جوهانسبرج بجنوب أفريقيا أو ما سمي بريو +١٠. ثم بروتوكول كيوتو الذي دخل حيز النفاذ في ٢٠٠٥، والذي

أبرم في اليابان منذ العام ١٩٩٧م وفيه التزمت الدول الصناعية بخفض انبعاث الغازات الضارة بالبيئة في الفترة من ٢٠٠٨ إلى ٢٠١٢م بمعدل لا يقل عن ٥٪ في النسبة، وبزيادة المساحات الخضراء، وباستثناء الدول النامية حتى الموعد المضروب، وبدعم استثماراتها في مجال تحسين البيئة. هذا البروتوكول لم يدخل حيز النفاذ إلا في فبراير من هذا العام بعد أن حاز على النسبة المطلوبة من المنضمين، والولايات المتحدة الأمريكية من أبرز معارضيه.

منذ مؤتمر «ريو دي جانيرو» والمؤتمرات بعده تنامى الوعي المطلوب للمحافظة على البيئة والحياة الفطرية. استيقظ العالم لمسألة البيئة ودرس المشاكل وحدد السياسات المطلوب تنفيذها، ولكن لم يُكوِّن آلية لمتابعة التنفيذ على الصعيد الدولي. هذه ثغرة ينبغي سدها أعجل ما يكون.